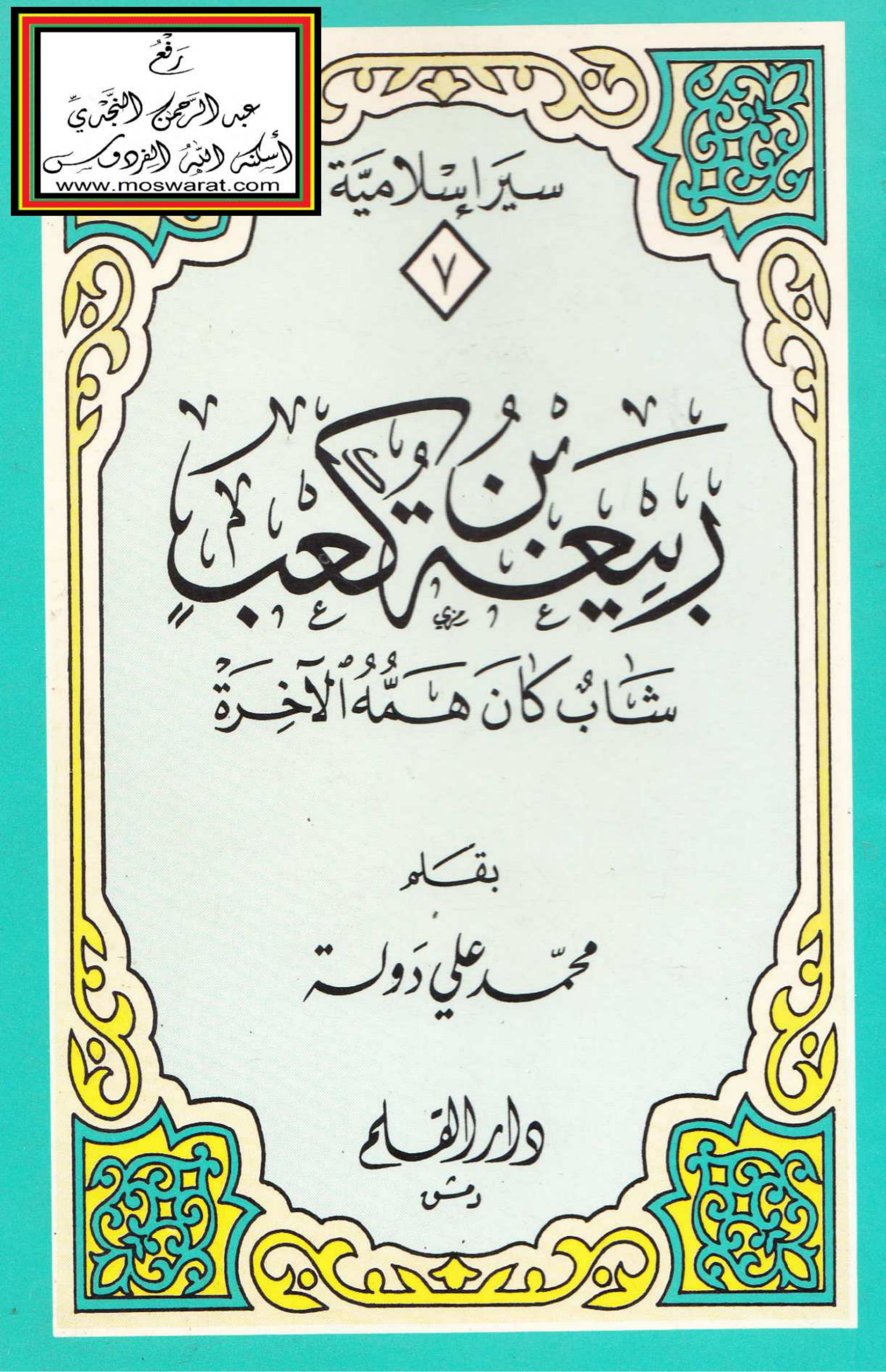
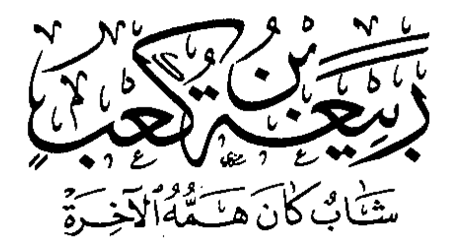


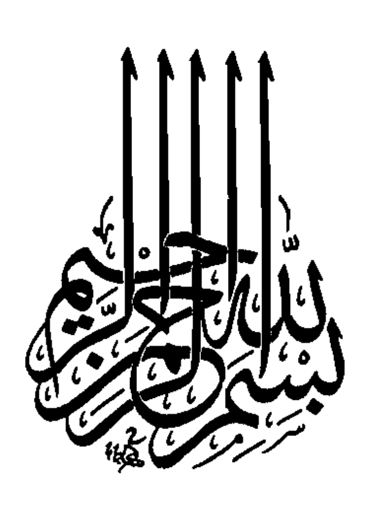
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
سير إسلامية
٧
ربيعة بن كعب
شاب كان همه الآخرة
بقلم
محمد علي دولة
دار القلم
دمشق



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

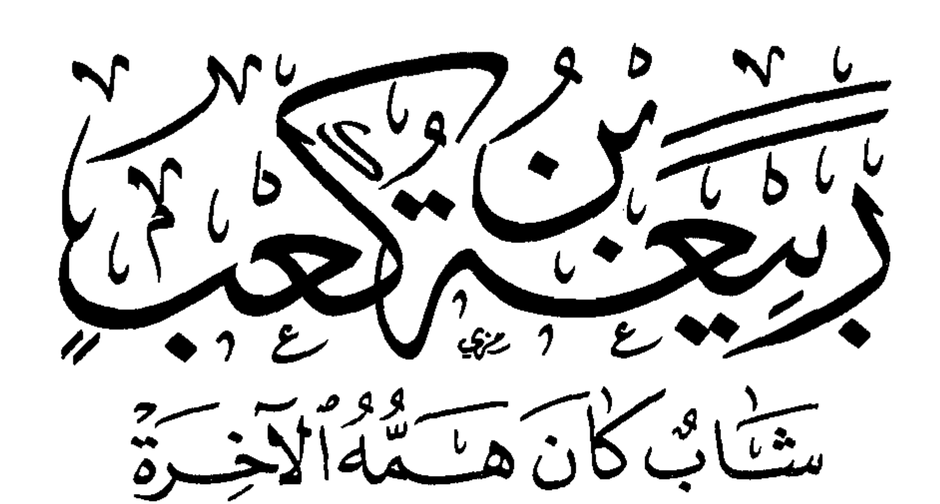
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com




بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





شاب كان همه الآخرة

بقلم

محمد علي دولة

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الثالثة
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

إهــداء

الأخ الحبيب « حكمت الحموي »

أرفع اليك - وأنت في منازل الحقّ تنعم بجوار ربّك الغفور الرّحيم - سيرة صحابيّ جليل كريم ، آثر الدّار الآخرة ، واختار الباقية على الفانية ، وحظي من رسول الله ﷺ بدعوة مستجابة .

لقد كان عمرك القصير قبسًا من هذه السّيرة العطرة ، فأسيت بصاحبها ، وتشوّفت نفسك لما تشوّف إليه « جنّة الخلد » فقدّمت لها من عملك ، وأكثرت من ذكرها في اليوم الذي لم تكن تعلم أنه آخر أيامك .

ولقد فجعنا أن تنتهي حياتك بصدمة لئيمة رعناء من مركبة زبانية السّوء المستهينين بأرواح الناس .. ولكن لا عليك .. فلك الله .. ولك الشهادة .. وعليهم ما يستحقّون من غضبه وعقابه .

فانعم إذًا - أيها الأخ الحبيب - بجوار ربّ كريم ، وموعدنا معك جنّة النّعيم ، في زمرة سيّد المرسلين ، إن شاء الله ربّ العالمين ، وسلام عليك إلى يوم الدّين .

محمد علي دولة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

ـ ١ ـ

أدَّى (ربيعة بن كعب) صلاةَ الفجر، وجلسَ حيثُ صلَّى يفكِّرُ في يومِهِ وأمسِهِ. . . ما أعظمَ البَوْنَ بين ما كان عليه في أمسه وبين ما هو عليه في يومِهِ هذا!! كان مُشْرِكاً بالله، جاهلاً بعظمته وصفاتِهِ الحُسْنىٰ، بعيداً عن دينه الحق؛ وهو اليوم مؤمنٌ بالله لا يشركُ به شيئاً، يعظِّمُ الله، ويَدين بدينه الذي بَعَثَ به خاتَمَ رسلِه. كان بالأمس يعبد حجارةً لا ترى ولا تسمع، ولا تضرُّ ولا تنفع؛ وهو الآن يتوجَّه إلى السميع البصير، العليم الخبير، الذي بيده مقاليد كلِّ شيء، وهو علىٰ كل شيء قدير.

كان الفرح يملأُ قلبَه، ويسري في سائرِ جسدِه، كان وجهه يُبْرِقُ سروراً وطرباً، وكانت السعادة تغمره وتغمر الوجودَ من حوله. أصبح يرى كل شيء جميلاً رائعاً، إنه ينظر

إلى السماء ونجومها التي تتلألأ، فيرىٰ أنَّ جمالها قد ازداد، وينظر إلى البادية الممتدة في كل ناحيةٍ من حوله، فيرى أنها قد لبست ثوبَ حُسْن، ويتسمَّع إلى أصوات الدِّيَكة والمواشي، فيُحِسُّ أنَّ لهذه الأصوات وقعاً جميلاً على أُذُنَيْه ما كان يُحِسُّ به من قبل!!.

أصبح كلُّ شيءٍ حولَه جميلاً، وأصبح يُحِسُّ كأنَّه وُلِدَ من جديد، وكأنَّ روحاً جديداً سَرَىٰ فيه، فجدَّد له حياتَه، وفَتَح قلبَه على جمال الكون والحياة!!.

لقد أشرقت الأرضُ بنور ربها، وصار هذا النُّور يتألَّق في قلب (ربيعة) وروحه، وجعل يُحِسُّ بالحياة من جديد، فهو قد آمن باللهِ خالق الحياة، وفاطر هذا الوجود، ومفيضِ الجمالِ والبهاءِ على جميع ما في الوجود!!.

وهو قد آمنَ بدينِ الله الذي أرسل به أنبياءَه، وختمه بنبوَّة خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ، العربي القرشي، وهو قد أحبَّ هذا النبي حباً لا حدود له، وقد رأىٰ في شخصِهِ أكملَ الصفات وأعظمَ المزايا، فما أجدَرَه بالحبِّ والاتباع والتعظيم والتبْجيل!!.

* * *

أخذ (ربيعة) يسترجع في خاطره ذكرياتِ أمسه، ويستعيدُها مراراً وتَكراراً. يا لها من ذكرياتٍ جميلة رائعة، ويا لَه من يومٍ كان خيرَ يوم طَلَع عليه منذ وَلَدَتْهُ أمُّه!!.

كان (ربيعة) يرعىٰ الغنم مع رِعْيان قومه مساءَ أمس، وإنه الآن لَيَرُوحُ بسَرْحه إلى خيام قبيلته (أسْلَم)، وها هو ذا يقترب من مضارِبِ الخيام، وإذا به يرى زعيمَ قومه (بُرَيدةَ بنَ الحُصَيْب) وحوله جمعٌ حاشد من قومه يتَّجهون إلى مكان قريب من منازلهم، والاهتمامُ بادٍ على وجوههم. وتساءل ربيعة عن سرِّ هذا الحَشْد، وعن مَقْصِدِهم من مسيرهم، فقال له قائل:

إنهم أُخطِروا أنَّ رجلَ قريشٍ ــ الذي دعا الناس إلى الإيمان بنبوّته، والذي تآمَرَتْ عليه قريش وألجأتْهُ للهجرة ودفعتْ الأجرَ العظيمَ لمن يأتيها به حَيَّاً أو ميِّتاً، وأذاعت ذلك في قبائل الحجاز ــ أنَّ هذا الرجل الخطير يجلس الآن بناحيةٍ من بلاد (أَسْلَم)، وأنَّ لهذا الرجل تأثيراً عجيباً في نفوس من يلقاه، فلقد اتَّبعه على دينه (المُهانان) وأنه قد سمَّاهما (المُكْرَمان)!!.

وتساءل ربيعة: (المُهانان) أصبحا على خُلُقٍ ودين؟! وأنى لهما أن يتركا الفسادَ وقطعَ الطريق، وقد سلخا زماناً وهما يفتكان بكل من يمرُّ في ربوع (أسلم) ويغتصبان ما معه؟!

وأجابه صاحبه:

نعم لقد آمن (المُهانان) بهذا الذي يقول عن نفسه إنه نبي. وإنهما هما اللذان دَعَوَا قومَهما ليَنْهَدوا إليه، ويسمعوا قوله!!.

وترك ربيعة سَرْحه، وطلب إلى غلام من أقاربه أن يسوقَها إلى مرابضها، وسعىٰ مع قومه إلى حيث يسعَوْن ودخل في زحمةِ الناس، بل قد اقتربَ من رجل أسلم الأول (بريدة بن الحصيب).

وَوَصَل ذلك الجمع الحاشد إلى سفح تلٍّ صغير، وأقبلوا على رجلين يجلسان إلى راحلتين، ومعهما رجل ثالث كان يصحبهما في سفرهما[1]، وحَيَّى (بريدة) الرجلين

(١) هو عامر بن فهيرة رضي الله عنه.

وصاحِبَهُما قائلاً:

عِمُوا مساءً أيُّها القوم.

فأجابه رسول الله ﷺ:

«إنَّ الله قد أبدلنا بتحيةٍ هي خير من تحيتك: السلام».

فحيَّاه بريدةُ بالسلام، ثم جلس إليه، وجلس قريباً منه ربيعة، وجلس (المُكْرَمان) وبقية القوم حول هؤلاء الرجال الثلاثة.

وعرفَ النبيُّ ﷺ أنَّ بريدة هو زعيم قومه، فتوجَّه إليه قائلاً:

«من أنت؟».

قال: أنا بريدة بن الحصيب.

فالتفت النبي ﷺ إلى صاحبه أبي بكر وقال له: «بَرَد أمرُنا وصلح!!»

ثم قال لبريدة:

مِمَّن أنت؟.

فقال بريدة: من أَسْلَم.

ونظر رسول الله إلى الصدِّيق وقال له: «سَلِمْنَا!!».

وسأل النبيُّ بريدة:

«ثم مِنْ بني مَنْ؟».

فقال: مِنْ بني سهم.

وأقبل النبي على أبي بكر وقال له: «خَرَجَ سهمك!!».

واتَّجَه رسول الله ﷺ إلى هذا الحَشْد، ودعاهم إلىٰ الإيمان بالله ونَبْذِ الأصنام، وعرَّفهم برسالته ودعوتِهِ بكلماتٍ موجَزَاتٍ جامعات، وَعَجِبَ الجمع من هذا الرجل المُنَوَّر الوجْه، السعيدِ النَّفْس، الذي يتفاءل بكل كلمةٍ طيبةٍ يسمعها، وسمعوا منه كلاماً ما سمعوه من قبل، وقرأوا آياتِ الصِّدْق في وجهه، وَدَخلت كلماتُه إلى قلوبهم، فَخَشَعَتْ له القلوب، وأُرْهِفَت له الأسماع.

ورأىٰ رسولُ الله تأثُّرَهم بكلامه، فقال لهم: «إني رسولُ الله، خاتَمُ أنبيائه، قولوا: لا إله إلا الله تُفلحوا».

واستجابَ جميع القوم، فشهدوا شهادةَ الحق ودخلوا في الإسلام .

وسُرَّ رسولُ الله بإسلامهم سروراً بالغاً، وأقْبَل على زعيمهم بُريدة وقال له: إنّي أريدُ أنْ أُعَلِّمَك وقومَك شيئاً مما أُنزل عليَّ، ثم أقرأهم عليه الصلاة والسلام الآيات التاليات:

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل

لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾.

واستمع بُريدةُ وقومُه إلىٰ هذه الآيات، فَسَحَرَتْهم بجمالها وفصاحَتِها وجِدَّتها، فلقد سمعوا كلاماً ما سمعوا مثلَه من قبل، وانطبعتْ هذه الآيات في قلب بريدة وقلوبِ عددٍ كبير من قومه، فقد كانوا يتلقَّوْنَها بِشَغَفٍ عظيم، وأعاد رسولُ الله ﷺ عليهم تلاوتَها حتى يتمكّنوا من حفظها، ثم طَلَب إليهم أن يَتَطَهَّروا ليصلُّوا خلفَه العشاء، فَهَرَعُوا إلى الماء وأصَابُوا منه طهوراً، وعادُوا سِرَاعاً إلى رسولِ الله ﷺ، فصلَّوا خلفه صلاة العشاء، وخَشَعَتْ قلوبُهم من جديدٍ لآياتِ القرآن يَتْلوها هذا النبيُّ الكريم.

وبعد انتهاءِ الصَّلاةِ دعا لهم رسول الله بالخير، وَوَدَّعَهم فَرْداً فَرْداً، ثمَّ تابَعَ طريقَه مُهَاجِراً، وقد زَرَع في قلوبهم

الإيمـانَ واليقينَ، ومـلأ عليهم تلك القـلوب حُباً لــه وشَغَفـاً بدعوته، وتعظيماً لشأنه.

* * *

كان (ربيعة) يجيل في خاطـره هذه الصُّـوَر وهو في غـايةِ السُّـرور، وكان يعيـد تلك الذكـريات مـراراً وتَكراراً، ويَسْبَـح في عالَمٍ من السعادة والحبور حتى لقد ذُهل عما حـوله، ولم ينتبـه إلاّ علىٰ أصـواتِ صحبــه من الـرعــاة يصيحـون بــه: هيا اخرج بِسَرْحك، لقد سَبَقَنا الرعاة.

ونهضَ ربيعة من مكانه، وساق ماشيتَه أمامه، وأقبل على الرعاةِ يحـدِّثهم ويحدثـونه عن لُقْيـاهم لرسـول الله يوم أمس، وعَمَّا أصاب أسلم من الخير في ذلك اليوم بفضل هـذا النبـيِّ الكريم، وكان هذا حديثَهم عامَّةَ يومِهم، بل لقد كان حديث أسلم كلِّها: رجالِها ونسائِها، صغارِها وكبارِهـا، وكان حـديث اليوم والغد وحديث المستقبل.

— ٢ —

كان ربيعة بن كعب شاباً قد ناهز الخامسـةَ عَشْرَةَ، وكـان يمتاز عن معظمِ أقرانه، برجاحةِ عقله، وعميقِ فهمه، ورهافةِ

حسِّـه. كان يـرعى الغنم في قومِـه (أَسْلم) على أجرٍ زهيـد، ويُعين أَبَوَيه بكَسْبِهِ القليل على شؤون العيش.

كان منظر السماء في الليل يثير في نفسه التفكير، ويُغريه بالتأمُّل، ويزرع في قلبـه تساؤلاتٍ كثيـرة. لكن ما حـوله ومَنْ حَوْلَه كان يضغط على هذه التساؤلات، فتخْمُدُ في قلبـه، ولا تَقْـوى على أن تحـرِّكَــه وتَشْغَلَه، ولا تقـوى على أن ينــاقش بها قومَه. وكان صِغَرُ سِنِّه يـزيده إحجـاماً عن الكـلام في هذه الأمور التي يفكِّر فيها، والتي يوحي إليه بها عقلُه المتفتِّح.

وكانَ لُقياه لـرسولِ الله ﷺ بـداية انـطلاقةٍ بعيـدة وعميقةٍ لفكره النيِّر ونظراتِهِ البعيدة، فقد سمع منه كلاماً أنار بصيرتـه، وفتح عينيه من جديد على سرِّ الوجود، ومصدرِ الوجود، ومصيرِ هذا الوجـود، بل على فلسفـة الحياة كلِّهـا، فتعرَّف منـه على الخالق العظيم، وعلى مهمَّة الإنسان في هـذه الحياة وواجبـه تجـاهَ الرب الخـالق، وأدركَ أنَّ الحياةَ مـا هي إلا فترةُ اختبـار لهـذا المخلوق المميَّـز بـالعقـل والإرادة ـ الإنســان ـ وفي الآخرة سيلقىَ جزاءَ ما قَدَّم من عملٍ في حياته.

وأدرك هـذا الشــابُّ مِنَّـة اللهِ العـظيمـةِ على هـذه الأمَّــة

بهـذا النبيِّ الـذي سَيُنْقِـذُهـا من الحضيض إلىٰ أسمى المراتب، ورأىٰ فيه رحمةً عظيمةً ساقَها الله لأمته ولسائِرِ الأمم ليستنقِذَها من الظلماتِ إلىٰ النُّور، ومِنَ العذابِ إلى النعيم.

* * *

أحبَّ (ربيعةُ) رسولَ الله حباً عظيماً، وسَرَى حبُّه في جميعِ أوْصَاله، واستقرَّ في سويداءِ قلبه، وجعلَ هذا الحب ينمو يوماً بعد يوم. وكانت صورةُ رسول الله لا تفارق مُخَيِّلَتَه، بل هي مرتَسمةٌ أمامَه حيثما اتجه وأينما حل، ولقد حزَّ في قلبِهِ أن يعيشَ بعيداً عن هذا النبي، فلا تكتحل عيناه برؤيتِهِ، ولا تَسْعَد روحُه بالنظر إليه.

وَمَرَّت أشهرٌ قليلة علىّ (ربيعة) عاشَ فيها على أحرّ من الجَمْر لفراقِهِ رسول الله ﷺ، وبات يشعر بالعَنَاء الشديد والمشقَّة التي لا تطاق، إنْ هو بقي بعيداً عن هذا النبيِّ الكريم الذي هامَتْ روحُه في حبِّه، وذابَتْ مُهْجَتُه حنيناً إليه.

وفكَّر ربيعة بالهجرة من بلادِ أَسْلَم إلى مدينة النبي، وقلَّبَ وجوهَ الرأي في هذا الأمر، وخاطَبَ نفسه مراراً:

لماذا لا أهاجر إلى النبيِّ ﷺ، فأكونَ قريباً منه، وأَسْتَأذِنَه في خدمته، فأَسْعَدَ بالقرب منه، وأقضيَ لُبانتي من حبِّه والحنين إليه، وأتعلَّمَ منه ديني، وأقرأَ عليه القرآن؟!.

وهَجَسَ في نفسه هاجسٌ شيطاني: وكيف تطيق فراق مرابِعِ الصِّبَا؟ وأنَّى لك أن تَهْجُرَ الأهلَ والوطنَ؟ وكيف ستَعيشُ في بلدٍ غريب وبين أُناس غرباء؟!.

لكنّه سريعاً ما طَرَدَ هذا الهاجس وقال لنفسه: إني وإنْ فَارَقْتُ أهلي وعشيرتي وبلادي، فإنِّي سأجدُ أهلًا وعشيرةً دونهم، وسيكون رسول الله لي الأبَ الرحيم والأخَ الشفيق والصديقَ الودود، ولسوف أجدُ في صحبه أهلاً وعشيرةً وصحباً، وفي مدينته بلداً هي أحب إليَّ من باديتي وربوعي.

وعاوَدَتْ هذه الخواطر ربيعةَ مراراً، وفي كل مرَّة يزداد عزيمةً ومضاءً على الهجرة عن ذي قبل.

وأخيراً حَسَمَ الأمرَ وخاطب نفسه:

ربيعة، فيمَ التأخُّر عن الهجرة إلى رسول الله؟!.

كنْ سابِقَ (أسلم) إلى هذه الهجرة.

هَيَّا إلى الهجرة من هذه البلاد إلى بلاد أحب إلى قلبك، وفيمَ التعلُّق ببلادٍ تعلُّقَ القلبُ بسواها، وماذا يُقعدك عن الهجرة، ولا يمنعك منها زوجٌ ولا ولد. ولا...؟!.

وسعى (ربيعة) مساء يومٍ من الأيام إلى أبويه واستأذنهما في الهجرة، ورجاهما أن يسمحا له في ذلك، فَأَذِنَا له، وقالا: كانَ اللهُ معك وصَحِبَتْك السلامة.

وبات ليلته سعيدَ النفس، فَرِحَ القلب، فلقد فُتِحَ له بابُ الهجرةِ إلى النبي، وبعدَ ساعات سيتَّجِهُ إليه!!.

ـ ٣ ـ

استيقظ (ربيعة) فَجْرَ اليومِ التالي، وصلَّى الصبح على عَجَل، ثمَّ ودَّع وَالِدَيْه وَسَرَىٰ في بقيَّة الظلام باتِّجاه المدينة المنوَّرة، ثم لم تلبث شمس ذلك اليوم أنْ طَلَعَتْ فجدَّ في سفرِهِ يحدوه الشوقُ، ويُغريه الحنين، وتقودُه العزيمة الشابّة التي كان يتحلَّى بها، والأماني الحلوة التي يتطلَّع إليها.

* * *

ها هو ربيعة يدخل مدينةَ الرسول ﷺ، بعد سفرٍ شاقّ مُضْنٍ، وها هُوَ ذا يشعر أنَّ كلَّ ما لاقاه في سفره قد زالَ عنه، وهو الآن يُحِسُّ بالسعادة الغامرة تحيط به من كل جانب، فلقد وَصَل إلى موطن الأمان والاطمئنان، وبلدِ الرسول ﷺ الذي طالَ شوقُه إليه، وعزَّ فِرَاقُه عليه.

وبادَرَ ربيعة فسأل بعضَ غلمان المدينةِ عن رسول الله ﷺ، فدلُّوه على المسجد وأخبروه أنّه يجده فيه، فحثَّ الخُطا إليه حتى وَصَله، ودخل المسجد النبوي، وإذا به يرى رسولَ الله ﷺ يؤمُّ أصحابَه لصلاة العصر، فاكتَحَلَتْ عيناه برؤية هذا النبي الكريم، وسَعِدَ قلبُه بالنظر إليه، ثم انضمَّ إلى صفوف الصلاة، فأدَّاها خلف رسول الله ﷺ، وبعد انتهاء الصلاة تقدَّم من النبي على استحياء وقال له:

السلامُ عليك يا رسولَ الله ورحمة الله وبركاته، أنا ربيعة بن كعب من (أَسْلَم)، جئتك مهاجِراً، وأنا أطمع أن أكون إلى جوارك أخدمك، وأتعلم منك، وأكون معك.

وردَّ النبيُّ ﷺ عليه التحيَّةَ، ورحَّبَ به، وبشَّ في وجهه ولاطفه، وأخبره أنه عرفه ولم ينسه.

وسَعِدَ (ربيعةُ) بهذا اللقاء سعـادةً عظيمـة، ورأى أنه قـد وصـل إلى ما كـان يأمـل، وأنه قـد آن لـه أن يقـطِفَ ثمـراتِ هذا الأمل الحبيب، الذي طالما تمنَّاه وحلم به.

* * *

كان فرح (ربيعة) عظيمـاً بهجرتـه إلى مدينـة النبـيِّ ﷺ، وزاد من فـرحِـه ذلـك الاستقبـالُ الكـريمُ الـذي استقبله بـه النبـيّ، وتلك الحَفَاوةُ التـي ينالها منه، وها هو ذا يصلـي كـلَّ يـومٍ خلفـه الصلواتِ الخمس، ويستمـع إليـه، ويُصغي إلى كلماتِهِ الحبيبة، وأحاديثِهِ المباركة، ويتلقَّى القرآن غضَّاً طَرِيَّـاً من فمه الشريف، فيحفظ آيـاتِهِ وسـورَه، ويستزيـدُ رسولَ الله منه يوماً بعد يوم.

ثم ها هو ذا قريباً جداً منه يكاد لا يفارقـه، فهو قـد اتَّخَذ مسجده بيتاً ومأوى، فلا دارَ له في المدينة ولا عشيرة، ولو كان لـه دار وعشيرة لمـا كانتـا أحبَّ إليـه من مسجـد الـرسـول ﷺ وصحبــه، حيث حجـرتُــه عليـه الصــلاة والسـلام تــلاصق هذا المسجدَ الشريف، ومن أراده فما أسهلَ أن يصلَ إليه.

* * *

أوىٰ (ربيعة) إلى مسجدِ رسول الله واتَّخَذَه بيتَه ومسكنَه، يقضي فيه لَيلَه ونهارَه، ويجاورُ فيه أحبَّ البشر إليه ـ رسول الله ﷺ ـ ويخالط فيه أصحابَه، ويقضي ليلَه مع عددٍ من الشبَّان من أبناء الصحابة الذين كانوا يبيتون مثله في المسجد، يتهجَّدون فيه، ويطمعون أن يُصلُّوا خلفَ النبيِّ في جوف الليل. ثم لقد أمَّ المسجدَ مهاجرون جُدُد من أمثالِ ربيعة وفيهم رجال من (أسلم) ولقد كثر عدد هؤلاء، ففرح هو بهم، وسعدوا جميعُهم بسكنى هذا المسجد الشريف، وبجوار نبيِّهم وقرة عيونهم.

وأمَرَ رسول الله ﷺ أن تُبْنى لهؤلاء ظُلَّة أمام باب المسجد ينامون فيها، فَبُنِيَتْ لهم تلك الظلة، وأصبحت لهم داراً، وسُمِّيَتْ تلك الظلة (الصُّفَّة) وصار أهلها يُسَمَّوْنَ (أهل الصُّفَّة)، وكان رسول الله ﷺ يكرمهم ويحنو عليهم، فكان يوزِّعهم على أصحابه عشيَّةَ كلِّ يوم، فيتعشَّوْن عندهم، ويأخذ هو من بقي منهم إلى بيته فيطعمهم.

ولم يكن هؤلاء القوم بالكسالى الذين يَقْعدون عن العمل والحركة، بل كانوا يَنْشَطون في كل خير، وينهضون في كل

أمر، ويجاهدون مع رسول الله، ويرسلهم في سراياه، لكنّ المجتمع الإسلاميَّ في ذلك الوقت كان مجتمعاً فقيراً، وكان الصحابة قد شُغِلوا بالجهاد وحمايةِ الدعوة عن جمع المال وتثميره، وكان هؤلاء يَشْغَلون أوقاتهم في هذه الأمور الجليلة مع النبيِّ ﷺ، وكان في تعاليم الإسلام من التعاونِ والرحمة والبرّ بالفقراء ما يَسَعُ حاجة هؤلاء ويكفُل لهم أمورَ عيشهم.

ولقد تحمَّل هؤلاء من الجوع الشديد والحياة القاسية والعُرْيِ وقِلَّةِ الحاجات الشيءَ الكثير، ومع ذلك فلقد كانوا سعداء.. كان لهم من إيمانهم بالله، وشغلهم بالدعوة، وجوارِهم لرسول الله وحبِّهم إياه ما يمسَحُ عن قلوبهم كلَّ الأحزان والآلام.

ـ ٤ ـ

انصرف ربيعة إلى خدمةِ رسولِ الله ﷺ، وأصبحَ هذا الأمر شغله الشاغل وعمله الوحيد، وأصبح الخادمَ الثاني له بعد أنس بن مالك، ذلك الغلام الذي كان أوّلَ من تشرَّف بخدمته حينما قَدِم المدينة، فقد كانت أُم ذلك الغلام

ـ الصحابيَّة الجليلة أم سُلَيْم ـ قد أمسكت بيدِ غلامها وصحبت زوجَها أبا طلحة، ثم انطلقت إلى النبيِّ ﷺ فقالت له: (يا رسول الله، لم يَبْقَ أحد من الأنصار إلا أتحفك، وهذا ابني أنس غلامٌ كَيِّسٌ، أَتَيْتُك به كي يخدمك). فَقَبِلَه النبيُّ عليه السلام، وجعل أنس يخدمه، ثم انضمَّ إلى أنسٍ ربيعةُ، فكانا ينشطان في عملهما ويسعدان بتلبيةِ كل حاجةٍ لهذا النبي الكريم.

ولا تَسَلْ عن مقدار سرور ربيعة في حياته الجديدة، فقد أتاحَتْ له خدمته لرسول الله ﷺ أن يراه كثيراً، وأن يستَمِعَ إليه ويأخذَ عنه القرآن، وأن يحادِثَه، وأن يمشيَ معه ويجلسَ إليه، ويصلِّيَ خلفه ويغزوَ معه، بل لقد أتاحت له هذه الخدمة أن يلقىٰ منه كل عطف ومودَّة، حتى إنه عليه الصلاة والسلام كان يمازحُه ويمازح زميلَه أنس بن مالك.

* * *

شُغِل (ربيعة) برسول الله ﷺ عن كل شيء، فأصبح لا يفكِّر بأحد، ولا يَشْغَل ذهنَه شاغل. لقد شُغِل عن أهله وعشيرته، وشُغِل حتى عن نفسه، وأصبح همُّه أن ينشط في

تلبية حاجات النبـي، وأن يُسرعَ في تنفيذ ما يطلبه منـه، حتى ينال رضاه.

لقد أصبح رسول الله ﷺ كلَّ شيء في حياته، وأصبح ربيعة لا يـرى للسرور طـريقاً إلا أن يكـون في أمرٍ من أمـورِهِ عليـه الصلاة والسلام.

وكم كان يُسْعِدُهُ أن يناديَه النبـيُّ: يا ربيعة أقدم. يا ربيعة خـذ هـذا الشيء. يـا ربيعـة اذهب إلى فـلان فقـل لـه أجبْ رسولَ الله. يا ربيعة اذهب مع فلان إلى فلان، فقـل له يقـول لك رسول الله كـذا وكذا... كـان نداء رسـول الله له بـاسمه أحبَّ ما يسمع وأجملَ صوتٍ تصيخ إليه أذنه.

وانضمَّ إلى خـدمـة النبـي عليـه الصـلاة والسـلام أنـاس آخرون، وكان منهم رجلان من (أسلمَ) هما: هنـد بن حارثـة وأخوه أسماء بن حارثة. وجعلوا جميعـاً يتنافسـون في خدمتـه عليـه الصلاة والسـلام، وجعل ربيعـة يسبقهم في ذلك، وهم لا يدركون له شأواً.

* * *

لم يرَ ربيعة في خدمةِ النبـيِّ طيلة يـومه مـا يرضـي نفسـه

في القرب منه، فانصرف إلى خدمته في ليله، فكان إذا صلَّى العشاء وانصرفَ الناسُ إلى بيوتهم، انصرفَ هو إلى باب الحجرة التي يكون فيها رسولُ الله ﷺ، فيجلسُ قريباً منه، على أمل أن يتلقَّى أيَّ نداءٍ من رسول الله ﷺ، فكان عليه السلام يفتح باب الحُجْرة أحياناً ويناديه بأن يُحضِرَ له ماءً ليتوضأ به، فيسارع ربيعة ويُحضر الماء، وكان أحياناً يرسله في أمور تهمُّه عليه الصلاة والسلام، فَيَنْشَط في ليله كما ينشط نهاره.

إلا أنَّ النبيَّ عليه السلام كان يريده على الاستراحة في ليلِه، فلا يكلّفه بأمرٍ إلا قليلاً، لذا كان ربيعة لا يكاد يسمع من رسول الله إلا قوله: «الله أكبر» «سمع الله لمن حمده» «الله أكبر»، وإلا قوله: «الحمد لله رب العالمين» «سبحان الله وبحمده»، فكان ربيعة يمل أحياناً من طول الانتظار، فيترك مكانَه عند بابِ الحجرة، وينصرف إلى (الصُّفَّة) فيمضي بقية ليله، إلا أنَّ ربيعة كان يؤثر المُكث أحياناً، فتغلبه عيناه، فينام، ولا يشعر إلا برسول الله ﷺ يوقظه ويقول له مداعباً: «قم يا نَوْمَان» فيقوم فَزِعاً، ويقول: والله لقد غلبتني عيناي يا

رسـولَ الله، فما يـزيد عليـه الصلاة والسـلام على الدعـاء له والثناء عليه.

ـ ٥ ـ

رأى رسـول الله ﷺ كَلَفَ ربيعة بخـدمتـه، وإقبـالَـه على ذلك في ليلِه ونهارِه، فأحبَّ أن يكافِئَه، وأن يردَّ إليـه جميله ـ وكان هذا دأبه صلوات الله وسلامه عليه مع كل من يصنـع إليه معروفاً ـ فخلا به يوماً بعد صلاة العشاء، وقال له:

«يا ربيعة سَلْنـي أُعطِك».

فتحيَّر ربيعة فيمـا يطلبُ من رسـول الله ﷺ، فهو لم يكن يفكِّر في أن يطلبَ منه شيئاً لقاء خدمتـه له، بـل كان يـرىٰ أنَّ خدمته له رِبْح لا يعدِله شـيءٌ في الدنيا من مالٍ أو تجارة.

ولم يدرِ ربيعة كيف يردُّ على النبـي ﷺ، لكنه أخيراً قطع حَيْرته وقال:

(أنظرُ في أمري يا رسولَ الله ثمَّ أُعلمك).

وتركه النبـيُّ عليه الصلاة والسلام ودخلَ حجرته، وجلسَ

هـو علىٰ عـادتـه ينتـظر أن يـأمـرَه رسـولُ الله بـأمــر، ليُسـرعَ فــي تلبيته.

* * *

قضى ربيعـة أيـامـاً عـديـدةً وهـو يفكِّـر فيمـا يـطلب من رسول الله ﷺ، فلم يكن بدٌّ من أن يطلب منه شيئاً، فالـرسول قال له: «سَلْني أعطك» ولا بدَّ من طاعته.

ولكن ماذا يسأل رسول الله؟ لقد شَغَلَه هـذا الأمر كثيـراً، وأقضَّ مضجعـه، وأقلقَ بالـه، فمـا كـان يفكـر في شــيء من أمورِ الدنيا إلا ويرىٰ قلبه منصرفاً عنه، ويُحِسُّ أن نفسه تعزف عنه عزوفاً تاماً.

كان قلبُه معلَّقاً بالآخرة، وزاهداً في هـذه الدنيـا الفانيـة، وكان يزيده تَطلُّعاً إلى الآخرة ما يتلوه في كتاب الله تعـالى في وصف الجنة ونعيمها ودوامها وخلودها.

كان يتلو في سورة البقرة:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ

هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥)﴾.

ويقرأ في سورة الأعراف:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٤٢) وَنَزَعۡنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِىَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٤٣)﴾.

وكان يَطْرَب لهذه الآيات وهو يتلوها في سورة يونس:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠)﴾.

ويقول دائماً بعد تلاوتها: اللهم اجعلني منهم يا رب العالمين.

وكان يسعده أن يتلو هذه الآيات من سورة الزخرف:

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

وكثيراً ما كان يردِّدُ بعد تلاوة هذه الآيات:

فمالي وللدنيا إذن!!.

وكان كثيراً ما يردد هذه الآيات:

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الواقعة ١٧ - ٢٤].

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان ١٩ - ٢٢].

فيقول: وماذا وراء هذا النعيم الخالد!!.

وكانت كلماتُ رسولِ الله ﷺ في وصف الجنَّة لأصحابه تجعله يزداد تعلُّقاً بتلك الدار، وتطلُّعاً إليها، إنه لا يزال يرنُّ في أذنيه قول الرسول عليه السلام في مسجده الشريف فيما ينقل عن ربه عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر ـ ثم قرأ:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾»(١).

ولم ينسَ قولَ النبيِّ ﷺ الذي سمعه منه من قريب: «موضع سَوْطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»(٢).

وقوله: «ومَنْ دَخَلَهَا يَنْعَم ولا يبؤس، ويُخلَّد ولا يموت، لا تبلى ثيابهم ولا يفني شبابُهم»(٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) رواه البخاري. (٣) رواه الترمذي.

ومما كان يزيده إعراضاً عن الدنيا ما كان يتلوه في القرآن الكريم من تصغير الله لشأنها، وتقليله لمتاعها، وبيان فضل الآخرة عليها، فكان يقرأ هذه الآيات من سورة الكهف ويقف عندها طويلاً:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

وكذلك كان يطيل التفكير وهو يتلو هذه الآيات من سورة الحديد:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

كان العزوف عن الدنيا والتطلّع إلى الآخرة هو شغله

الشاغل، لذا كان لا أَرَبَ له في أمور الدنيا، ولقد كانت نفسه تحدِّثُه أحياناً بأمور من الدنيا، فيهمُّ أن يطلبها من النبيِّ ﷺ، لكنه سرعان ما يرجع عن ذلك، وينظر إلى بعيد... إلى الآخرة!!.

كان يتحدَّث في نفسه فيقول: ماذا أطلب من النبيِّ ﷺ؟.

هل أطلب حجرة أسكنها؟ لا، فالمسجد خير منزل.

هل أطلب مالاً أصلح به حالي؟ لا، فحالي أحسن حال، وأنا سعيد في حياتي.

هل أطلب منه ثياباً أتجمَّل بها؟ لا، إن لباس التقوى خير.

هل أطلب منه أرضاً أزرعها؟ لا، ففي ذلك ركون إلى الدنيا.

هل أطلب منه زوجةً؟ لا ثم لا، ففيها شغل لي عن خدمة رسول الله ﷺ.

وأعاد ربيعة على نفسه هذه الأسئلة مراراً، ثم عزم على

أن لا يطلب من النبي ﷺ شيئاً من أمور الدنيا، وقال في نفسه:

سوف لن أطلب من رسول الله إلاّ ما ينفعني في آخرتي، إنَّ الدنيا زائلة والآخرة باقية، وإنَّ لرسول الله جاهاً عند ربه عز وجل، فَلِمَ لا أسأله شيئاً ينفعني في آخرتي!! إنني سَأَسْأله في هذا الأمر، وفيه وحده.

* * *

وفي ليلةٍ من الليالي فَرَغَ رسول الله ﷺ من صلاة العشاء ثم أقبل على ربيعة قائلاً:

«ما فعلتَ يا ربيعة»؟.

فأجابه على الفور:

(نعم يا رسول الله، أسألك أن تشفعَ لي إلى ربِّك، فيُعْتِقَني من النار، وأسألكَ مرافقَتَك في الجنَّة).

وأعظمَ النبيُّ ﷺ هذا الطلب، وأدهشه أن يطلبه هذا الفتى، وأعجبه منه جداً أن يطلبَ الباقي الخالد وينصرفَ عن الزائل، وكأنَّه عليه السلام قد ظن أن ربيعة قد استشار

من هـو أعقل منـه من الصحابـة، فـأشـار عليـه بهـذا الأمـر، فقال له:

«مَنْ أمَـرَكَ بهذا يا ربيعة»؟.

فأجاب:

(لا والذي بعثَكَ بالحق، ما أمَـرَني به من أحـد، ولكنك لما قلتَ: سَلْني أُعطِك، وكنتَ بالمنزل الذي أنت به، نظرتُ في أمري، فعرفت أنَّ الدنيا منقطعة وزائلة، وأنَّ لي فيها رِزْقاً سيأتيني، فقلتُ: أسأل رسولَ اللهِ لآخرتي).

ورأىٰ النبيُّ ﷺ في ربيعـةَ شابـاً هَمُّه الآخِـرة، لكنه أراد أن يَسْتَوثِقَ من إصْرَاره على هذا الطَّلَب، فقال له:

«يا ربيعة أو غَيْرَ ذلك»؟.

فأجابه بحزم:

(هو ذاك يا رسولَ الله).

وصَمَتَ رسول الله ﷺ طويلاً، وأرخى ربيعة نـاظريـه إلى الأرض، وأسـرع قلبُهُ في الخَفَقـان، واحمـرَّ وجهُـهُ، وخشيَ ألَّا يراه رسول الله أهلاً لتلبية هذا الطلب، فلا يدعو له.

ومضت عليه برهة عصيبة، لكن النبيَّ الكريمَ الرحيمَ، سرَّى عن ربيعة همَّه الذي حلَّ به، وألقى على مسامعه هذه الكلمة الطيبة التي كانت أجملَ كلمةٍ سمعها في حياته، قال له:

«إني فاعل... فأعِنّي على نفسِك بكَثْرة السجود».

وشَكَر ربيعةُ رسولَ الله، وانصرف عليه السلام إلى حجرته، وهو يُتَمْتِمُ بدعواتٍ مباركات.

أما ربيعة فانصرف إلى ناحيةٍ من المسجد والفَرَحُ يملأ قلبَه وجوارحَه، وسَجَد لله سَجَداتٍ طويلات، كانت بداية عهدٍ جديد له في هذا اللون من العبادة الذي جعلَه رسول الله ثمناً يقدمه ربيعة في حياته، ليكونَ رفيقاً له في جَنَّة الله ورضوانه.

— ٦ —

فَرِحَ ربيعة باستجابةِ رسولِ الله ﷺ لطلبه في أن يدعوَ اللهَ له، فيكون رفيقَه في الجنة، وأيقن أنه قد دعا له بهذا الدعاء، فيا لَسَعادتُهُ أن يكون رفيقَ رسول الله في الدنيا والآخرة، ويا لَجَدِّه العظيم!!.

وممَّا زاده سروراً أنَّ عَدداً كبيراً من أفراد قبيلته قد هاجروا إلى المدينة وأقاموا في ضاحيةٍ من ضواحيها، وجعلوا يتردَّدون إلى المسجد ويصلُّون خلفَ النبيِّ ﷺ ويحضرون مجالسه، يتقدّمُهم في ذلك زعيمُهم الصالح (بريدة بن الحصيب). ثم لقد زاده سروراً على سرور أن النبيَّ عليه السلام دعا لقبيلته أسلم فقال: «أسْلَم سالمها الله».

* * *

نَشِطَ ربيعة في عبادتِهِ وفي كثرةِ ركوعه وسجوده في ليله ونهاره، فلقد قال له النبيُّ عليه السلام: «أعنِّي على نفسك بكثرةِ السجود»،ولقد أيقنَ أنه بكثرةِ سجوده وإقباله على ربه سَيُكتب له أن يكون رفيقَ رسولِ الله في الجنّة.

ورأى رسول الله أنَّ ربيعةَ قد ازدادَ اجتهاداً في العبادة وإقبالاً على الله واستغراقاً في صلاته، فأُعجب بهذا الشاب الناشىء في طاعة الله، لكنه عليه السلام خشيَ عليه أمراً يفسد عليه طاعته، فربيعة شاب في رَيْعان شبابه، وهو شاب عَزَب، فيه جميع إحساساتِ الرجولة، ورسولُ الله يرسله في حاجاتٍ كثيرة، فهو يسير في الطرقات، ويدخل بيوتَ الناس

ويخالطهم، فلا بدَّ لـه من زوجة تعفُّـه عن الحرام، وتعصمـه عن الفواحش، وتغضَّ بصره، وتكَمِّلُ دينه؛ وتـوجيه الشبـاب للزواج كان من صميم تعاليمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي كـان يعلمها النـاس، ولقد خـاطب الشباب مـراراً وقـال لهم: «يا معشرَ الشباب من استطاعَ منكم الباءَةَ فليتزوَّجْ؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصَنُ للفرج. ومن لم يستَطِعْ فعليه بـالصَّوْم، فـإنَّه له وِجاء».

وَعَزَم عليه الصلاة والسلام على تزويج ربيعة، فأمْـرُ هذا الشاب وكل شباب الإسلام يهمُّه، والنبـيُّ صلوات الله وسلامه عليه كان أبرَّ بأصحابه وأرحمَ بهم من الآباء والأمهات.

وقال النبـيُّ ﷺ يوماً له:

«يا ربيعة ألا تزوَّج»؟.

وَدُهِشَ صاحبنا لِمَا سمع، فالزواج آخر ما كان يفكر بـه، وهـو في شُغْلٍ عنـه، وحتى لو أراده فمـا يملك مَهْرَ الـزوجـة ولا النفقـةَ عليهـا، لـذا بـادر يجيب رســول الله ﷺ ويقـول: «لا واللهِ يا رسول الله، مـا أريد أن أتـزوَّج، وما عنـدي ما يقيمُ المرأة، وما أحبُّ أن يَشْغَلَني عنك شيء».

وسَمِعَ النبيُّ جوابَ ربيعة فتركه وانصرف في شأنه.

* * *

مَضَتْ مُدَّةٌ وربيعة يزدادُ إقبالاً على الله، واجتهاداً في خدمةِ رسولِ الله، وكان النبيُّ عليه الصلاة والسلام يرى ذلك منه، فيزداد حبُّه له، وإعجابُه به.

ورأى عليه الصلاة والسلام أن لا بد لربيعة من زوجَة تصون له دينَه، وتحفظ طاعتَه وإخباتَه، ولم يَشَأْ ـ وهو سيد المربِّين ـ أن يلزم ربيعة بأمرٍ لا يحبه، بل آثر أن يجعله يقبل هذا الأمر ويحبه ويبادر إلى تنفيذه طائعاً راغباً، فقال له مرة ثانية:

«يا ربيعة ألا تزوَّج»؟.

فأجابه على الفور: (ما أريد أن أتزوج، وما عندي ما يقيم المرأة، وما أحبُّ أن يَشْغَلَني عنك شيءٌ).

وتركه رسول الله ﷺ هذه المرة أيضاً، وانصرف إلى حجرته.

أما ربيعة فلقد أهمَّه مفاتحةُ النبيِّ ﷺ له بشأن الزواج ثانيةً، فهو قد ظنَّ أن الأمر قد انتهى منذ المرة الأولى، فجلَسَ ليلاً بعد صلاةِ العشاء وأسنَدَ ظهره إلى حُجْرَةِ النبيِّ ﷺ، وجعل يسائل نفسه:

لماذا عَرَضَ عليَّ النبيُّ ﷺ الزواجَ مرةً ثانية؟!.

لا بدَّ أنه يحبُّ لي أن أتزوَّج، ولا بد أن الزواجَ خيرٌ لي في دنيايَ وآخرتي، ولا بدَّ لي أنْ أهوى ما هَوِيَه رسول الله لي، فهو أعلم بما يصلحني في الدنيا والآخرة.

(واللهِ، لو قالَ لي: ألا تَزَوَّج؟ لأقولنَّ له: نعم يا رسول الله، مُرْني بما شئت).

ولم يطل الأمر بربيعة هذه المرة، فبعدَ أيامٍ قليلة، وفي وقتِ الظهيرة فَتَح النبيُّ ﷺ بابَ حجرتِه، ومشىٰ حتى أقبلَ على ربيعة ـ وكان قد أسند ظهره إلى جدارِ المسجد ـ فلم يَرُعْهُ إلا رسولُ الله فوق رأسه، وابتسم في وجهه، وقال له:

«يا ربيعة ألا تزوَّج»؟.

وأجابه ربيعة على الفور:

(بلىٰ، مُرْني بما شئت).

وضحك عليه السلام لجواب ربيعة حتى بدت نواجذه، ثم قال له:

«اذهب إلى آل فلان ــ حيّ من الأنصار ــ فقل لهم: إنَّ رسول الله أرسلني إليكم يأمُرُكم أن تزوِّجوني فلانة».

فقال ربيعة: سَمْعاً وطاعةً يا رسول الله، وتركه عليه الصلاة والسلام وعاد إلى حجرته.

* * *

أهمَّ ربيعةَ أمرُ رسول الله له بأن يذهب فيخطب لنفسه، وتمنى لو أنَّ أمَّه أو أباه حاضران إذاً لذهبا معه أو لذهب أحدهما، بل لقد فكر في أن يصطحب معه أحد أفراد قبيلته (أسلم) ليتجرَّأ على طلبه، لكنه قال في نفسه: مالي ولأبي ولأمي ولقبيلتي، ولماذا التواني في أمرٍ وجّهني فيه رسولُ الله، لسوفَ أذهب وحيداً وأفاتحهم بأمرِ رسول الله ﷺ، وما أراهم إلا سيستجيبون فوراً.

* * *

أدَّى ربيعة صلاةَ العصر خلفَ رسول الله ﷺ، ثم انطلقَ حيث أمَره، فوقَفَ على باب البيت، فاستأذنَ فأُذِنَ له في الدخول، فدَخَل وسلَّم ثم قال لمن في البيت: (إنَّ رسول الله أرسَلَني إليكم)، فعاجله صاحب البيت وقال له: (مَرْحَباً برسولِ اللهِ وبرسولِ رسولِ الله، هاتِ أبلغني حاجة رسولِ الله)، فقال ربيعة:

(لقد أرسلني رسول الله إليكم يأمُرُكم أن تزوِّجوني ابنتكم).

فقال الأنصاري: حُبَّاً وكرامةً، والله لا يرجع رسولُ رسول الله ﷺ إلا بحاجته، وقالت زوجته: نحن تَبَعٌ لأمر رسول الله، نطيعه فيما أحب.

ثم قال الأنصاري: مَن الفتى؟ فقال: أنا ربيعة بن كعب، من (أسْلَم) وقد هاجرتُ إلىٰ رسول الله كي أخدمَه وأكونَ إلى جنبه، فقال الأنصاري: مرحباً بأخينا المهاجر، ومرحباً بخادم رسولِ الله ﷺ.

ودخلت الأم إحدى حجر البيت، وأخبرت ابنتَها بالخبر، فقالت الفتاة الأنصارية: إنْ كان رسول الله قد أمر بذلك، فأَمْرُ

رسـول الله على الرأس والعين، ثم خـرجت تـومىءُ لـزوجهـا برضا ابنتها، ونظر الأنصاريُّ إلى ربيعة وقال له: لقـد زوَّجْنَاك ابنَتَنا، ونحن نقبل المهـرَ الذي يـراه رسول الله، فـارجِع إليـه وأقْرِئْهُ منَّا السلام، وأخبره بما رأيت منا!!.

قَفَـل ربيعـة راجعـاً إلى رسـول الله، وقـد سـرَّتـه تلك الاستجابة، وأدْهَشَتْه تلك الطاعة العجيبة من أهـل ذلك البيت لأمر رسول الله في قضيَّةٍ ذات شأن هامّ. وجعل يفكر وهو في طـريقه في الحصـول على المهر، وارْتَسمت أمـاراتُ الحـزن على وجهه، فهو لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، لكن الحـزن سُـرِّي عن وجهه حين ذكـر أنَّ رسـول الله ﷺ لا بـد أن يُعينـه عليه، ويهيِّـىء له المهر الذي يحتاجه.

ووصـل ربيعة إلى النبـيِّ فَحَيَّـاه قـائـلاً: (السلام عليـك يا رسول الله ورحمة الله وبركـاته، وجـزاك الله عني كل خيـر، لقد ذهبت حيث أمرتَني، وقد أتيـت يا رسولَ الله قوماً كِرَامـاً، فـزوَّجـوني وألـطفـوني، ومـا سـألـوني البيِّنَـة، وليس عنـدي صَدَاق).

وابتسم عليـه السـلام لكـلام ربيعـة، ثم أرسـل وراء

بُريدة بن الحصيب ـ زعيم أسلم ـ فأخبره بأنه قد زوَّج ربيعة من فتاةٍ أنصارية وقال له:

«اجمعوا له وزن نواةٍ من ذهب».

وقام بريدة لتوِّه يلبِّي أمرَ رسول الله، فلم يغب طويلاً، حتى رَجَع وقد جمع لربيعة مهره، فأعطاه إياه، فأخذه ربيعة وجاء به إلىٰ النبيِّ فقال له عليه الصلاة والسلام:

«اذهب بهذا إليهم، فقُلْ لهم هذا صداقها».

* * *

وفي صباح اليوم التالي كان ربيعة يسير إلى بيت (حَمِيه) يحمل مهرَه المتواضع، وهو يتساءل: ترى هل سيرضَوْنه أم يرفضونه؟ ثم قال في نفسه: لا بد أنهم سوف يرضَوْنه، فأنا سأقول لهم: إنَّ رسول الله قد أرسلني به، وأنّى لهم أن يخالفوا أمرَ رسول الله؟! ثم ألم يقولوا لي: إنهم يرضَوْن من المهر ما رضِيَه رسول الله؟!.

ودخلَ ربيعة بيتَ حميه وقدم لهم المهرَ قائلاً: هذا صداق ابنتكم أرسلني به رسولُ الله ﷺ، فتناوله منه حَمُوه، وقال: قبلتُه، إنه كثير طيب.

وجلس ربيعة في بيت حميه يتحدَّث إليهم، وجلست زوجه قبالته ورآها للمرة الأولى فأُعجب بها، وارتاحت إليها نفسه، وسُرَّت هي الأخرى به، وقدموا إليه اللبن فشرب، ثم جعل يقصُّ عليهم كيف كان أول لقياه لرسول الله ﷺ، وكيف أسلم، وكم عانىٰ من فراقه النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن هاجر. واستمع أصهاره إليه باهتمام، وسُرُّوا بحديثه.

ثم إنه اتفق معهم على أن تُزَفَّ إليه زوجه في وقت قريب، وقال: إنه سينصرف ليهيِّىء وليمة العرس، وليهيِّىء السكن له ولزوجه.

* * *

وفي ظهيرة هذا اليوم مَثُلَ ربيعة بين يدي رسول الله ﷺ والسرور بادٍ على وجهه وقال له: (يا رسول الله، ما رأيتُ قوماً أكرم منهم، ورضوا بما آتيتُهم، وأحسنوا وقالوا: كثيرٌ طيب، وليس عندي ما أُولم).

وابتسم رسول الله ﷺ، وأمر أنس بن مالك ـ خادمه ـ أن يذهب إلى بُريدة بن الحصيب زعيم أسلم فيقول له: إنَّ رسول الله يقول لك: «اجمعوا لربيعة ثمنَ شاة» ليُولِمَ بها.

ونقل أنس إلى بُريدة أمرَ رسول الله ، فقام الرجل لتوّه وطافَ في جماعةٍ من قومِهِ، فجَمَع منهم ثمنَ كَبْشٍ كبير فاشتراه له وقال لأنس: أرسل ربيعة يأخذ الكَبْش، وذهب ربيعة وأتى بالكَبْش إلى رسول الله ﷺ، فبرِقَ وجه رسول الله سروراً بما لقيه هذا الشاب الصالح من معونةٍ وتوفيق ثم قال له:

«اذهب إلى عائشة فقل لها فلتبعث المِكْتَل الذي فيه الطعام».

فذهب ربيعة إلى حجرة السيدة عائشة وأخبرها بما قاله عليه السلام، فقدمت له ما عندها وقالت: (هذا المِكْتَل فيه سبع آصُع من شعير، لا والله إنْ أصبح لنا طعامٌ غيرُه، خذه).

وحمل ربيعة المِكْتَل، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فأمره أن يذهب بالكَبْش والشعير إلى بيت أصهاره وقال له: قل لهم: «ليصبح هذا الشعير عندكم خبزاً، وهذا الكبش طبيخاً».

ومضى ربيعة بعد عصر هذا اليوم إلى بيت أصهاره،

وقـدَّم لهم الـشعيـر والكبش، وحـدثهـم كيف هيـأ لـه رسول الله ﷺ أمر الوليمة، وحدَّثهم عن محبته وجميل رعايته عليـه الصـلاة والسـلام لـه، فشـكـروا جميعـاً صـنيـعَ رسـولِ الله ﷺ، وقالـوا لـربيعـة: «أمـا الخبـز فنحن نكفيكم شأنه، ولكن اكفونا أنتم شأن الكَبْش».

انطلق ربيعة بالكَبْش إلى ظاهِر المدينـة حيث كانت تقيم قبيلة أسلم، واستقبله رجـال من قبيلتـه أحسن استـقبـال، ـ وكـانوا قـد أعـدوا لـه سكنـاً بينهم يـأوي إليـه هـو وزوجه الأنصـارية ـ ثم أخبـر رجالَ قـومـه أنَّ عـروسَـه ستُـزَفُّ إليـه في وقت قـريب، وأنه ينتـظر منهم أن يُعينوه في إعـداد وليمـة العرس التي سيدعـو إليها رسـولَ الله في جملة من أصحابـه، فـوعـدوه خيـراً وأظهـروا لـه استِبْشَـارهم وسـرورَهم بـزيـارة رسول الله لهم.

* * *

وبعد أيام قليلة جيءَ بـالعروس الأنصـارية في زحمـةٍ من النسـاء يتقدّمُهُنّ بعضُ الـرجال، واستقبلهم رجـال ونسـاء من (أسلم) وأظهروا فرحهم، وزفـوا العروس إلى زوجهـا ربيعة،

وتمَّ بـذلك بنـاءُ بيتٍ إسلاميٍ صغيـر، وتأسيسُ أسـرة مؤمنةٍ؛ كـان للنبـيِّ الكريم صلوات الله وسـلامـه عليـه اليـدُ الـطولى في بنائها.

وبعد الزفاف بيومين دَعَا ربيعة لوليمة عرسه، وطبخت لـه (أسلم) الكبش وجاءه من بيت حَمِيه الخبـز، وكان في مقـدمة المدعوِّين رسـولُ الله ﷺ وأبو بكـر وعمر وعثمـان وعلي، في جملةٍ من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.

وفي مسـاء ذلـك اليـوم احتشـد هـذا الجمـع الكـريم، وجلسوا يأكلون من وليمة ربيعة في سـرور وحبور، يحيط بهم رجـال مـن أَسْلم وفـي مقـدمـتهـم زعيـمُهـم (بُـريـدة بـن الحصيب). . . كان سرورهم بالغاً بزيارة رسول الله ﷺ لهم، إنهم ذكـروا جميعـاً في ذلـك اليـوم ذلـك اللقـاءَ الأول لهم برسول الله حينمـا كان في طـريق هجرتـه، وكيف آمنوا يـومها وخَرَجوا من الظلمات إلى النور.

وبعد الانتهاء من الطعام تقدَّم ربيعة إلى رسـول الله ﷺ، فشكَرَه على بِرِّه وحفاوته به، وهنَّأه رسول الله بزفافه قائلاً:

«بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير».

وَهَنَّأَه بقيَّةُ الصَّحْب الكرام ودعَوْا له، ثم انصرف رسول الله ﷺ ومَنْ مَعَه، فشيَّعه بريدة بن الحصيب ورجال أسلم إلى ظاهرِ مساكنهم، ثم عادوا والسرور يملأ قلوبَهم، وشكروا لربيعةَ أنه كان السبب فيما أصابهم من بركةِ زيارةِ الرسولِ وأصحابه.

* * *

انتقل ربيعة من حياة العزوبة إلى الحياة الزوجية...، وكان زواجه مباركاً موفَّقاً، سكنت إليه نفسُهُ وارتاح له قلبُه.

وأكرمه الله بزوجةٍ صالحة كانت تطيعه وتعينه على شؤون حياته، وتشجّعه على الإقبال على العبادة وحضور سائر الصلوات في المسجد النبوي.

وأخبرها هو بخبره مع النبي ﷺ وما دعا له به، وقولِهِ له: «أعنِّي على نفسك بكثرة السجود» فصمَّمت هي الأخرى على أن تصيبها من بركة هذا الدعاء؛ فهي زوج ربيعة في الدنيا، وهي ترجو أن تكون زوجه في الآخرة أيضاً، وأقبلت على العبادة وجعلت تنافس زوجها في ذلك.

وشَعَر ربيعة بالسعادة، وأدركَ أنَّ رسول الله كان يريد

له الخير، وهو أعلم منه بما ينفعه، وأنه كان ناصحاً أميناً له حينما عَرَض عليه الزواج وحضّه عليه.

وَلَهج لسانُ ربيعةَ بشكرِ رسول الله وقال: اللهم اجزِ عنّي نبيَّك محمداً خيرَ الجزاء، اللهم صلِّ وسلم على نبيك محمد وعلى آله، اللهم بارك عليه في العالمين.

— ٧ —

لم يَشْغَلْ الزواجُ ربيعةَ عن خدمة رسول الله ﷺ، بل استمر يخدمه طيلةَ نهاره، وجزءاً من ليله، ثم ينصرف إلى بيته، فقد كان أسعد ما يسعده أن يكونَ إلى جوارِ رسول الله، وأن يمشيَ في حاجته، وأن يُطيعَ الله في طاعته.

وكان يحضر المشاهدَ مع رسول الله في قتال أعداء الدعوة الإسلامية، فكان يحضر الغزوات ويخرج أحياناً في السَّرايا، وكان يخرج في ذلك ماشِياً على قَدَميه، فهو لا يملك الدابّة التي يركبها، ويحتَسِبُ ذلك عند الله تعالى.

وأراد رسول الله ﷺ أن يعينَ ربيعة على شؤون حياته الزوجية، فوهبه قطعةَ أرضٍ في ظاهر المدينة، وكان من

حُسْنِ حظِّه أنَّ هذه الأرض تجاور أرضاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فَفَرِحَ بذلك، واعتقد أن هذا من فضل الله عليه، فالصِّدِّيقُ له منزلة كبرى عند رسول الله، وحبُّه والبِرُّ به هو حبٌّ لرسول الله وبرٌّ به.

بَيْدَ أنه في يومٍ من الأيام نَشَبَت خصومة بينه وبين هذا الجار الكريم، فقد اختلفا على شجرةِ نَخلٍ، وقال كلٌّ واحد منهما هي في أرضي ــ وكانت في أبي بكر رضي الله عنه حدَّة ــ فكلَّم ربيعةَ بكلمةٍ قاسية، فسكتَ ربيعة، ولم يَرُدَّ عليه بشيء، وذهب أبو بكر إلى خيمته مُغْضَباً، وجلس ربيعة حزيناً، وجعل يلومُ نفسَه على ما وقع، وخشيَ أن يكون هو الذي أغضب الصديق، وأن يكون في ذلك ضياعُ شيء من حسناته التي يعتبرها رأسَ ماله.

وبَيْنَا ربيعة مستغرقاً في فكره، يَغْشاه حزنٌ كبير لما جرى إذا بالصدِّيق يأتيه فيقف أمامه ويقول له:

(يا ربيعة رُدَّ عليَّ بمثل الكلمة التي قلتُها لك، حتى يكون قِصاصاً).

وأجابه ربيعة: (لا أفعل)، فكرَّر عليه الطلبَ وناشدَه

أن يفعل، فأبى. وعندها قال أبو بكر له: (لتقولَنَّ أو لأستعدِيَنَّ عليك رسولَ الله ﷺ)، فقال ربيعة: (ما أنا بفاعل).

حَزِنَ أبو بكر الصديق لما وقع منه ولما فاته من القصاص، وشعر بثقل وِزْر تلك الكلمة التي قالها لربيعة، وأسِفَ أنَّ ربيعة لم يردَّ عليه بمثلها، فاشتمل رداءَه، وتوجَّه شطرَ المدينة يستعدي رسول الله على صاحبه.

وحَزِنَ ربيعة على ما أصابَ الصِّديق من همٍّ، فهو لم يردّ عليه الكلمة إكباراً له وإعظاماً لشأنه، وخشي أن يحزن رسولَ الله لحزنه، فيكون هو السببَ في ذلك، فيَحْبَطَ عمله.

وأسرع يمشي وراء الصديق ليعتذر إليه أمام رسول الله، وتبعه رجالٌ من قومه وجعلوا يقولون له:

(رَحِمَ الله أبا بكر في أيِّ شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ وهو الذي قال لك ما قال؟!).

لكنَّ ربيعةَ رفض هذا الكلام، وخشي أن ينظر الصديق وراءه فيراهم معه، فيظن أنهم يناصرونه، فيزداد حزنه، والتفت إلى رجال قومه وقال لهم بحزم: (أتدْرونَ من هذا؟ هذا أبو بكر الصدِّيق، هذا ثاني اثنين، هذا ذو شيْبَة

المسلمين ، إيـاكم لا يلتفت فيـراكـم تنـصـرونني عليـه، فيغضب، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه ، فيغضب الله عز وجل لغضبهما، فيَهْلِك ربيعة؟!. انصـرِفُوا عني وعـودوا، ولا أراكم أبداً معي).

ورجع رجال (أسلم) الذين هبُّوا يناصرون ربيعـة، ومشىٰ هـو خلف الصـدِّيق، وهـو جِـدُّ حـزين، وجعـل يلوم نفسـه ويقول: ماذا فعلتَ يا ربيعة؟ أزعجتَ الصـديق صاحبَ النبـيِّ الأكبـر، من أجل عِـذْق نخيـل، أفٍّ لـه ولمتـاع الـدنيـا كلِّه، لسوف أدَع له هذه الشجرة أمام رسول الله وأسترضيه.

* * *

وصـلَ أبـو بكـر رضي الله عنـه إلى رسـول الله فسلَّم وجلس، وقرأ عليه الصلاة والسلام في وجهـه الحزن، فقـال له: مالك يا أبا بكر؟ فحدَّثه بما جرى له مع ربيعة، وقال لـه: طلبتُ إليه أن يردَّ عليَّ بمثل ما قلتُ له فأبى!!.

وسكَّن رسول الله من حزنِ أبـي بكـر وقال لـه: (غَفَرَ الله لك يا أبا بكر).

وبعـد لأيٍ وَصَـلَ ربيعـةُ إلى النبـيِّ ﷺ فسَلَّم وجلس،

وبادَرَهُ النبيُّ قائلاً: «يا ربيعة، ما لك وللصدِّيق»؟! فحدَّثه ربيعة بما جرى بينهما وقال له: يا رسولَ الله، قال لي كلمةً كرهتها، وطلب مني أن أردَّها عليه حتى يكون قصاصاً فأَبَيْت!!.

وأَنْصَت ربيعة منتظراً جوابَ النبيِّ، وأطْرَق رأسَه حياءً منه ومِنْ صاحبه.

واتَّجه إليه رسول الله قائلاً:

«أجل، لا تردَّ عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر».

وتوجَّه ربيعة إلى أبي بكر بِوَجْهٍ طَلْق وقال له: غفر الله لك يا أبا بكر.

ولم يملك الصدِّيق عينيه، فبكىٰ فرحاً، وقال لربيعة: أحسنَ الله إليك أنْ غَفَرت لي، أما إني قد سامحتك بحقي في هذه الشجرة إن كانت لي.

وهكذا انتهت هذه الخصومة بهذه النهاية المرضية بفضل حكمة النبي ﷺ، كان فيها ربيعة رجلَ إيمان وصدق، وكان فيها مثالَ المسلم التقي الذي يلتزم أدب الإسلام،

ويتطلَّع من قلبه إلى مرضاةِ اللهِ ورسولِه، ولا يصرفه عن ذلك شيء.

ـ ٨ ـ

بقي ربيعة في جوارِ رسولِ الله ﷺ في مدينته الطيبة يخدمه، ويغزو معه، ويتعلّم منه، وكان يلقى من رسول الله ﷺ عطفاً زائداً، ومحبةً كبيرة، وكان عليه الصلاة والسلام يفاجئه بين حين وآخر بالهدايا والتحف، فيفرح لها، ويأخذها في سرورٍ بالغ.

مضى على ربيعة وهو إلى جَنْبِ النبيِّ ﷺ ما يزيد على عشر سنوات، كانت كأنَّها عشر ليال، فعلى الرغم ممَّا عاناه ربيعة من فَقْر مُدْقع وشدَّةٍ في عيشه، إلا أن ما كان يُحِسُّه من سعادةٍ بسبب صحبته وخدمته لرسول الله ﷺ، كان يُنسيه ذلك، ولا يجعله يخطر له على بال.

ويا لَيْتَ السرور يدوم لأهله، إذاً لدام لربيعة ولغيره من صَحْب رسول الله، ممَّن أكرمهم الله بصحبة نبيِّه وأسعدهم برؤيته والعيش إلى جواره.

أجل . . . لقد حلَّ بمدينـة النبـي عليه الصـلاة والسلام مـا جعـل أهلَهـا جميعـاً ينكـرون قلوبَهم، فلقـد انتقـل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وغَشِيَت المدينةَ الأحـزان، واسودَّ كلُّ شيء فيها، وفُجِعَ الناس أعظمَ فجيعة.

ولا تَسَـلْ عن حزن (ربيعـة بنِ كعب) و (أنس بنِ مـالـك) و (سفينة) و (أبـي هريرة) وغيرهم من أولئك الشبَّان الذين كانوا يخـدمون رسـول الله ﷺ، ويكثرون مـلازمتَه، فقـد فَقَدوا فيـه عليه الصلاة والسلام الأبَ الرحيم والأخَ الشفيق والصَّديق المؤنس الكريم!!.

لقد حزن ربيعة حزناً عظيماً، وذَرَفَ الدموع الغزيرة على فـراقه صلوات الله وسـلامه عليـه، وشاركتـه في ذلـك زوجتـه الأنصـارية، وجعـل يتذكـر أيامـه السعيدة الخـالية معـه عليـه الصـلاة والسلام، ويـذكر غُـدوَّهُ ورواحَه معـه، وأمـورَه التـي كان يرسله بها، ومُزاحه معه.

* * *

وصعب على ربيعـة أنَّ عَيْنَيه لم تعـودا تكتحلان بـرؤيتـه عليه السلام، فلم يَعُدْ يطيق البقاءَ في المدينة، وها هو ذا عَزَم

على أن يغادرَها ويعودَ إلى موطن قبيلته أسلم لعلَّ حزنه يخف وأسى قلبِهِ يهدأ.

وفي ضحى يومٍ من الأيام دخلَ ربيعة مسجدَ رسول الله ﷺ، وصلَّى ركعتي تحيَّة المسجد، ثم اتجه نحو الحجرة الشريفة التي ضمَّت الجسدَ الطاهر، ووقف بأدبٍ وخشوعٍ، والحزنُ العميقُ يغشاه، وقال:

(السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، أشهد أنك قد بلَّغت الرسالة، وأدَّيْت الأمانة، ونَصَحْتَ الأمَّة، وجاهدت في الله حقَّ جهاده، فجزاك الله خيرَ ما جزى نبيًّا عن أمته، وجَمَعَنا بك في الفِرْدوس الأعلى يوم الدين).

ثم استأخر قليلاً إلى الوراء، واتجه إلى باب المسجد بعد أن ودَّع النبي عليه الصلاة والسلام، وخَرَج وقلبه يجيش بالأحزان، وعيناه تذرفان الدموع.

* * *

غادر ربيعة المدينة المنورة مع زوجته الأنصارية وابنه (فراس) وبقية أولاده الذين رُزِق بهم في مدينة النبي، وانطلق بهم إلى بلاد أسلم، والحزن يغشاه والألم يتفجَّرُ من

جوانحه، وتذكَّر يوم هاجـر إلى رسول الله، فبكى بكـاءً حاراً، ولـم يُسَكِّن من بكائه وحزنه إلا تسليـةُ زوجه لـه وقولهـا: اصبِر واحتَسِب، فجعل يقول: إنا لله وإنا إليـه راجعون، حسبيَ الله ونِعْم الوكيل.

وفي بلاد أسلم أقام ربيعة بقيَّة عمره، وشارَكَ خلال ذلك في الجهـاد وفي نشر الـدعوة الإسـلامية، وحضـر الفتوحـات الكبرى، وكان يتردَّد خلال ذلـك على مدينـة النبـي ﷺ، فيؤمُّ مسجده، ويقف أمام حجرته، ويسلِّم عليه ويقضي منه حقه.

* * *

عاشَ ربيعة بعدَ رسولِ الله عمراً طويلاً أَنفَقَه في الجهاد في سبيلِ اللهِ وفي السجود الـطويل بين يَـدَي اللهِ سبحانـه. وكان أمامه همٌّ واحدٌ يسعىٰ لتحقيقه فيما بقي من عمره هـو أن يقدِّمَ ثمن دعاءِ النبـيِّ ﷺ، فيكون رفيقه في الجنة!!.

كان لا يَعْبَأ بشيءٍ من أمور الدنيا، ولا يَشْغَلُ قلبه بالغنائم التي كان يصيبها في جهاده، ولا بالأعطيات التي كان يرسلهـا له أمير المؤمنين عمـر وأمير المؤمنين عثمـان. كان يتـطلَّع إلى الآخرة وحدها، وإلى أنْ يرافقَ نبيَّه محمداً ﷺ في الجنَّة!!.

وفي عام ثلاثة وستين للهجرة، انتقل ربيعة إلى رحمة الله تعالى، وترك هذه الدنيا الفانية، وكان يقينُه عظيماً في الله سبحانه أن يغفر له ويرحمه ويجمعه بنبيِّه في جنة الخلد.
وجعل يردد كثيراً في أيامه الأخيرة من قوله:

غداً ألقىٰ الأحبة محمداً وصحبه

* * *

وبعد:

رحم الله ربيعةَ بنَ كعب رحمةً واسعةً. فقد دَخَل في الإسلام صادقاً، وهاجر إلى الله راغباً، وأحبَّ الله ورسوله حباً كبيراً. ولقد زهد في الدنيا وعَرَضِها، وكانت الآخرة هَمّه وشغله، فعاش عمرَه يرنو إليها، ويعمل من أجلها، ولا يقيم وزناً لغيرها... فرحمه الله ورضيَ عنه، ورفع درجته في المقرَّبين، وجعلَ في شباب الإسلام الكثير ممَّن يقْتدون به، ويحتذُون سيرتَه، وينسجون على منواله.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المـــراجع

* الاستيعاب في أسماء الأصحاب، لابن عبد البرّ.
* أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير.
* الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني.
* المسند، للإمام أحمد.
* الجامع الصحيح، للإمام مسلم.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سِيَرٌ إسلاميّة

سلسلة تراجم قصصية
تعتمد على أوثق المصادر

صدر منها:

١ ــ أبو بكر الصدّيق (أوّل الخلفاء الإسلام)
٢ ــ عمر بن الخطّاب (الفاروق العادل)
٣ ــ عثمان بن عفّان (الخليفة الشاكر الصابر)
٤ ــ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)
٥ ــ أبو هريرة (تلميذ النبوّة النجيب)
٦ ــ أبو موسى الأشعري (الربّاني العابد والفاتح المجاهد)
٧ ــ ربيعة بن كعب (شاب كان همّه الآخرة)

وسيصدر إن شاء الله:

٨ ــ أحمد بن عرفان (الإمام المجاهد الشهيد)
٩ ــ صلاح الدين الأيوبي (البطل الناصر لدين الله)

صدر للمؤلِّف

١ ــ **ربيعة بن كعب** (شابٌّ كان همّه الآخرة).

٢ ــ **أبو هريرة** (تلميذ النبوة النجيب).

٣ ــ **أبو موسى الأشعري** (الرباني العابد والفاتح المجاهد).

٤ ــ **قصص من حياة الرسول وأصحابه** (٦ حلقات).

قيد الإعداد:

٥ ــ **فضائل الصحابة رضي الله عنهم.**


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com



تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم: دمشق: ص ب: ٤٥٢٣ ت: ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية: بيروت: ص ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير
جدة: ٢١٤٦١ ص ب: ٢٨٩٥